الذوق الرفيع في الشعر الجاهلي

دكتورة
سعدية حسين البرغثي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مجلة ابن منظور، العدد الثالث، شعبان ١٤٤١هـ - إبريل ٢٠٢٠م

الذوق الرفيع في الشعر الجاهلي

د. سعدية حسين البرغثي

أستاذ مشارك - جامعة بنغازي - كلية التربية - قسم اللغة العربية

ملخص البحث:

الذوق الرفيع هو فن التعامل مع الناس بأشكاله المتعددة، النفس المرهفة الجميلة، الموقف الجميل، التصرف الجميل، الحركة الجميلة، اللمسة الجميلة، الكلمة الجميلة، ويظهر في جمال النظام، جمال النظافة، جمال الأناقة، جمال التناسق والانسجام، جمال البيت، جمال في مكان العمل، جمال في الطريق، جمال في الأماكن العامة. ومن الناس من اعتقد خطأ أن الذوق والأدب والخلق الرفيع، والرقي الحضاري، كل هذه قيم غربية خالصة، ولا تكتسب إلا في المدارس الأجنبية، وظن أن ديننا الحنيف عكس ذلك تماماً.

ورد في سورة النور آية ٢٧ حديث الاستئذان قبل دخول البيوت في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يتجلى في هذه الآية مظاهر الذوق والأدب وفن التعامل مع الآخرين في أسمى صوره ومعانيه فكلمة (تستأنسوا) معناها الآن في القرن الواحد والعشرين أن تتصلوا بهم عبر الأنترنت أو هاتفياً وتأخذوا منهم موعداً أي تتأكدوا أنهم مستعدون لاستقبالكم، كلمة جميلة كلها ذوق رفيع، أي تضمن أن هذا الصديق سيأنس بقدومك. وفي ذلك تنمية للذوق الرفيع، وتدريب الأحاسيس الإنسانية على الاتصال بمعاني الجمال المادي والمعنوي تجاه معظم الأمور الحياتية إن الحياة بغير ذوق وجمال مقفرة ومدعاة للملل والسآمة، وإذا وصلنا إلى تحقيق الذوق تتحول حياتنا إلى تذوق كل شيء جميل، وندرك الجمال حين نمارس الذوق في كل شؤون حياتنا، حينها نصل إلى بناء مجتمع مثالي يستجيب للجمال ويحس به ويدركه في شتى صوره.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فالعرب كانوا أصحاب ذوق رفيع، وحس مرهف، لذلك صبغوا أشعارهم بصبغة أدبية فخرجت في أجمل صورة، مما غرس في نفوسنا الميل الشديد إلى حب كل تصرف حميد يحمل معاني إنسانية راقية، وذوقاً رفيعاً، وإحساساً فنياً صادقاً، كما تبين لنا أن العربي القديم كان أكثر ذوقاً وتأدباً في معاملة الآخرين وهذا ما أكده شعرنا القديم.

فالذوق الرفيع يمثل قيمة إنسانية سامية، ومن آداب هذا الذوق اهتمام العربي بالابتسامة وانطلاق الوجه بالبشر والتهلل وهو يقدم العطاء للمحتاج، كما بلغ بهم الذوق أن يطيبوا نيرانهم التي تجلب لهم الأضياف. إن الذوق الرفيع ومكارم الأخلاق نتاج أجيال وأجيال وخلاصة تاريخ أمة صاغها الشعراء في شعرهم قصائد حية نابضة تعبر عن موروثهم الإنساني في ذلك العصر باعتبار أن الشعر يرسم صورة للواقع ومرآة تعكس لنا الحال آنذاك. فالحضارة ليست باستخدام الهاتف المحمول، والدخول على مواقع الأنترنت، وركوب المركبة الفارهة فقط، إنما الحضارة بالأدب والذوق الرفيع والرقي الأخلاقي. وما أحوجنا اليوم لمثل هذه المواضيع نستخلصها من تراثنا العربي الأصيل لنقدمها لأبنائنا زاداً ينهلون منه، فقد صور الشعراء لنا مواقف إنسانية راقية نابعة من جوهر التعاليم الإسلامية السمحة، على الرغم من عدم إدراكهم الإسلام وفي ذلك دلالة كبيرة استمدوها من فطرتهم السليمة وذوقهم الرفيع.

Abstract:

A definition of good taste is to master the art in dealing with people of diverse background، in dealing with beautiful and sensitive souls، beautiful stance، beautiful moves، beautiful touch، beautiful words، and beauty is demonstrated in law and order، in cleanliness، in elegance، in coordination and cohesion، at home and workplace، out on the street، and in public places. Some wrongly think having a good taste، high conduct، high morals، and cultural eminence is pure Western values، and can only be obtained in foreign schools، and believed our religion is opposite to all of that.

It was reported in the Quran، Verse 27، stipulating the tradition to seek permission before entering one's property، and that reveals the best of good taste، respect and good conduct with others. The very

www.alukah.net

word "استأنس" which means in the 21st century is to make contact via social media or telephone call to agree an appointment، and ensure their readiness to get the reception one deserves with very warm welcome، that in itself good taste meaning the friend you are coming to is happy for such a meeting. In cultivating good taste، and customizing human sensations in appreciating the material and metaphorical meaning of beauty towards all walks of life in general، can only come from the firm belief that life without good taste and beauty can be source of boredom and emptiness. If we reach the wished-for good taste، our lives can become tasteful of everything beautiful in our lives، and can only then build an ideal society those responses to beauty، and feel it. Arabs have had a good taste and fine sensitivity، and their poetry is dyed with literary، that was manifested in the prettiest forms، which ingrained in us leniency to love and behave in the highest human form، good taste، and true creative sensation. As one notices early Arabs had better taste and manners in dealing with other as was evident in the ancient poetry. High taste characterizes a high human value، and part of this taste is the Arab care with smile and showing happy face، and the ease by which they meet people in need.

Early Arabs used to send the flames of their fire high up in the skies to lure travelers and guests. This good taste and high meanings are generational product، and the nation's history was shaped by living poems that express this human inheritance in their era which was depicted by their verse that drew fine painting of their times which was a mirror that reflected it. So، civilization is not about high tech gadgets like mobile phones، and browsing the net or driving luxurious car. It is about good taste، honorable behavior and the finest of standards.

Certainly there is a dire need nowadays for such practice to draw from our great Arab traditions to equip our children with. Poets in the past gave us great human depiction of tolerant Islamic teachings،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

despite the fact they lacked Islamic knowledge which is a good evidence of their good taste that can only emanate from their good nature and good taste.

المقدمة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مظل له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد.

الذوق ظاهرة حضارية تدل على رقي العقل الإنساني، وقد جاءت فكرة هذا البحث (الذوق الرفيع في شعرنا القديم) بعد أن عرفت أنّ الحضارة ليست باستخدام الهاتف المحمول والدخول على مواقع الانترنت، وركوب المركبة الفارهة فقط، إنما الحضارة بالأدب والذوق الرفيع والرقي الأخلاقي، فما أحوجنا اليوم لمثل هذه المواضيع نستخلصها من تراثنا العربي الأصيل نقدمها لأبنائنا زاداً ينهلون منه، ولا يغيب عن البال أنّ الأخلاق والذوق الرفيع تبدأ بأدب وعلم البيت منذ الصغر، فالطفل كالشجرة إن لم نهذبها نشأت أغصانها متفرقة.

وكان أول من امتثل تلك الأخلاق رسولنا الكريم يقول الله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الأحزاب، الآية:٢١.

وحينما نتأمل قوله: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (أحمد والبخاري، ١/ ١٠٤، ٢٧٣)، يمثل القمة السامقة في مكارم الأخلاق، ويشير إلى الالتقاء مع أخوته السابقين من الأنبياء في الدعوة إلى القيم العالية ومكارم الأخلاق، مع أن رسالات السماء انتهت إليه وما اكتملت إلا به، وشريعته نسخت ما قبله من الشرائع.

وجمع الله له كل ما تفرق في إخوانه الأنبياء من محاسن الخصال ومزايا الفعال، ولكنه الأدب الجمّ، والذوق الرفيع والخلق العظيم حقاً إنه نبي الإنسانية.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فمن علامات الإيمان وعنوان السعادة أن يُرزق المرء ذوقاً رفيعاً راقياً، وتهذيباً رقيقاً ليستمتع بالحياة ويحترم مشاعر الآخرين ويدخل السرور على نفسه وعلى غيره.

ومن أهم معالم الذوق الرفيع اختيار الكلمة الراقية الصافية، فقد مرَّ سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ على قوم يوقدون ناراً، فكره أن يقول لهم: السلام عليكم يا أهل النار، إنما قال: السلام عليكم يا أهل الضوء.

فالذوق السليم هو بمثابة الحلي التي يتزين بها الإنسان فتظهره بأبهى صورة، وهو أمر جميل يدل على حسن الخلق وسداد في السلوك، وتصرف حميد يحمل معاني الأدب.

ومن هذا المنطلق فإن البحث تناول الذوق الرفيع في الشعر الجاهلي بالدراسة الموضوعية للكشف عن موضع الجمال والذوق الرفيع في شعرهم، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون مقدمة، وثلاثة مباحث وخاتمة، ومسرد بالمصادر والمراجع.

تناولت في المبحث الأول تعريف الذوق لغة واصطلاحاً، والذوق الرفيع في القرآن الكريم، وتضمن المبحث الثاني الذوق الرفيع في الشعر الجاهلي، وتناول المبحث الثالث نماذج من صفات الخير التي يحملها ذو الذوق الرفيع، وأخيراً ختمت البحث بنتائج مهمة.

أما المنهج الذي سلكته في هذا البحث فكان يعتمد الاستقصاء والدراسة والاستنتاج ثم التحليل.

وقد رجعت إلى مصادر ومراجع أهمها:

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: الألوسي.
- دواوين شعراء الجاهلية.
- القيم الخُلقية في الخطابة العربية: سعيد حسين منصور.
- التصوير الجمالي في القرآن الكريم: عيد سعيد يونس.

والله نسأل التوفيق والسداد

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المبحث الأول

تعريف الذوق لغة واصطلاحاً

تعريف الذوق لغة:

ورد في لسان العرب أن: "الذّوْقُ: مصدر ذاقَ الشيءَ يذُوقه ذَوقاً وذَواقاً ومَذاقاً، فالذَّواق والمَذاق يكونان مصدرين ويكونان طَعْماً، كما تقول ذَاقُه ومذاقُه طيّب؛ والمَذاق: طَعْمُ الشيء، والذَّواقُ: هو المأْكول والمشروب، الذَّوْقِ، ويقع على المصدر والاسم؛ وما ذُقْتُ ذَواقاً أَي شيئاً، وتقول: ذُقْتُ فلاناً وذُقْتُ ما عنده أَي خَبَرْته، والذوق يكون في ما يكره ويحمد..." (ابن منظور، مادة ذوق، ج ٤، ص ٥٣٥ – ٥٣٦).

كما وردت كلمة الذوق في معاجم اللغة على أنها الحاسة التي تميز بها الخواص الطعمية للمواد بواسطة الفم، ففي المعجم الوسيط" ذاق الطعام ذوقاً وذواقاً ومذاقاً: اختبر طعمه، ويقال ما ذقت نوماً، أذاق فلان كذا جعله يذوقه، ويقال أذاقه الله الخوف وغيره: أنزله به، وتذوق الطعام مرة بعد مرة، ويقال تذوق طعم فراقه، ودعني أذوق طعم فراقه" (أنيس وآخرون، ١٩٨٧، ج ٥، ص ٣١٨).

ومن المجاز أن يستعمل الذوق فيما يتعلق بالأجسام من المعاني، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ سورة الدخان، آية ٤٦، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سورة التغابن، آية ٥.

يتضح لنا أنّ لفظ الذوق يراد به المعنى المعجمي كحاسة لتذوق طعم المواد المختلفة، ويراد بها المعنى الاصطلاحي، وهو إدراك المواقف الحياتية بما تحتويه من معان وأفكار وأحاسيس.

الذوق اصطلاحاً:

استعيرت كلمة الذوق من تذوق الطعام إلى تذوق الجمال، من المعنى اللغوي لمعنى التذوق ويراد به التذوق الفني أي: تربية المشاعر من خلال الفنون، والذوق الذى يهمنا هو تلك الهبة الطبيعية الكامنة في نفوسنا، التي تدفعنا إلى تذوق الجمال بمعناه العام، لأنه أوسع وأشمل نطاقاً من أن يحصر في الفن، ونستطيع أن" نصل بكلمة الذوق إلى معنى أشمل عندما نتصوّر الذوق على أنه ليس فقط الاستجابة الجمالية للعمل الفني أو

www.alukah.net
شبكة الألوكة

للعلامات الجمالية الموجودة في الطبيعة، ولكن على أن يتعدّى ذلك لتشمل هذه الاستجابة الجمالية كل نواحي الحياة وكل ما تمرّ به في حياتنا من خبرات ومواقف، وعندما يصبح الجمال سلوكاً عاماً، وسمة غالبة تصبغ كل تصرفاتنا بصبغتها" (يونس، ٢٠٠٦، ص ٨١).

فالتصوير الفني الذي هو أحد أهم مجلات الجمال القرآني" لا يجدي في تذوقه إلا الذوق، وطول الممارسة الأدبية، والعناية بإبراز خصائصه الجمالية، بالنظر العميق، والشعور الرقيق" (عامر، ١٩٧٦، ص ١٩)، وبهذا نكون قد وصلنا إلى تحقيق الذوق حتى تتحول حياتنا إلى تذوق كل شيء جميل، وندرك الجمال حين نمارس الذوق في كل شؤون حياتنا، ومن هذا التصور الشامل لمعنى الذوق الجمالي نصل إلى بناء مجتمع مثالي يستجيب للجمال ويحس به ويدركه في شتى صوره.

فالحياة بغير جمال مقفرة ومدعاة للملل والسآمة، ويكفى التدليل على أهميته أنّ الله خلق الإنسان في أحسن صورة قال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سِينِينَ . وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ . لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ سورة التين، الآيات من ١ – ٤.

ونقصد بالذوق أدبيات التعامل مع الناس، جمال التعامل بأشكاله المتعددة، النفس المرهفة الجميلة، الموقف الجميل، التصرف الجميل، الحركة الجميلة، اللمسة الجميلة، الكلمة الجميلة، جمال النظام، جمال النظافة، جمال الأناقة، جمال التناسق والانسجام، جمال في البيت، جمال في مكان العمل، جمال في الطريق، وجمال في الأماكن العامة.

فمن الناس من اعتقد خطأً أنّ الذوق والأدب والخلق الرفيع والرقي الحضاري، كل هذه قيم غربية خالصة، ولا تكتسب إلا في المدارس الأجنبية، ومنهم من تربّى على الأدب والرقي والذوق، وظن أنّ ديننا الحنيف عكس ذلك تماماً فتراه حين يسمع كلمة متديّن يُنتظر منه عدم اللياقة، وعدم النظافة وعدم النظام، فصار الذوق عند هذا الإنسان الواهم حاجزاً بينه وبين الذوق.

ومن الناس من ظن أنّ الإسلام في المسجد ليس غير!! لذلك يقول دع ما لله لله وما لقيصر لقيصر.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الذوق الرفيع في القرآن الكريم

نجد في كتاب الله العظيم إشارات كثيرة تدل على التعامل مثل مفتتح سورة الحجرات، إذ فيها أمر للمسلمين، ودعوة إلى حسن مخاطبة النبي، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) سورة الحجرات، الآيتان: ١ – ٢.

وفي هذه السورة ما يدل على حسن التعامل والذوق، كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ) سورة الحجرات، الآيتان: ١١- ١٢، تتضمن هذه الآيات الكريمة قيماً عُليا وأحكاماً تناسب الفطرة البشرية.

إنّ فن السلوك المهذب والتصرف الراقي لا يكون بهذه الصفة إلا إذا كان نابعاً من أعماق النفس البشرية دون أدنى تكلف أو تصنع، وهو في نفس الوقت يتفق مع مبادئ الدين والعادات والتقاليد السائدة.

كما ورد في سورة النور حديث الاستئذان قبل دخول البيوت في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) سورة النور، الآيتان: ٢٧ – ٢٨.

ففي هذه الآيات الكريمة ما يتجلّى فيها من مظاهر الذوق والأدب وفن التعامل مع الآخرين في أسمى صوره ومعانيه، فالإسلام يعلّمنا الذوق، ويضع لنا منهجاً في فن التعامل والأدب، ومعنى (تستأنسوا) أي تتأكدوا أنهم مستعدون لاستقبالكم، وتستأنسوا في القرن الواحد والعشرين معناها: أن تتصل به هاتفياً وتأخذ منه موعداً... كلمة جميلة كلها ذوق رفيع، أي تضمن أنه سيأنس بقدومك هذا الصديق، وفي ذلك تنمية للذوق

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتدريب الأحاسيس الإنسانية على الاتصال بمعاني الجمال المادي والمعنوي تجاه معظم الأمور الحياتية.

ومن فضل الله على الأمة الإسلامية أنّ الشريعة التي شرعها الله لهم ذروة في الإيجابية والعطاء لأبنائها خاصة وللبشرية عامة، توجه إلى بناء حياة سوية سعيدة مفعمة بالذوق الرفيع، وتكفل لهم الأمن والسلام وحسن التفاعل، وقد وصف الله تعالى في كتابه الكريم العديد من الأخلاقيات بالجمال، والذوق الرفيع قال تعالى: فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا) سورة المعارج آية ٣، كثير من الناس يصبرون لكن أبهى صوره صورة للصبر الجميل، كما قال تعالى: (فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) (سورة الحجر، من الآية ٨٦)، وكثير من الناس يهجرون، لكنهم يسيئون إلى مهجورهم، وتبقى أندى صور الهجر ما ورد في قوله تعالى: (وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) سورة المزمل، آية ١٠، فكلمة جميلاً مصبوغة بالحكمة والرفق.

جميل أن تظهر مظاهر الجمال والذوق السليم في كل دقائق حياتنا فالجمال والذوق قيم إنسانية جديرة بالاهتمام لبناء الذات وتزكية النفس.

ومن تمام الذوق والخلق ألا يلحق العطاء والجود مَنّاً أو أذىً، وقد أدرك العربي هذه الخصلة النّفسية، فالمعطي حين يعطى لا يفسد عطاءه بالمنّ وظل هذا المعنى موصولاً حتى أقرّه الإسلام، فقد قال تعالى: (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيم. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) سورة البقرة: الآيتان ٢٦٣ - ٢٦٤.

كما كان الأجواد الكرام ينحرون الإبل السمينة والضّخمة لأضيافهم، ولم يكن العربي ينحر لضيفه إلا الكريمة من الإبل، وكان يعرض عن العليلة وقد أكّد القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) سورة آل عمران، آية ٩٢.

حقاً إنّ الإسلام دين الذوق، قال تعالى: (وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا) سورة النساء، آية ٨٦، إنها رسالة ربانية تعلّمنا الذوق الرفيع في التعاملات مع الناس، فالذوق منحة إلهية علينا ألا نبخل بها على الآخرين، ويجب أن نغرسها في نفوس أبنائنا؛ حتى تعطي ثمارها رقياً وحضارة وإنسانية طاهرة نقية من كل دنس وإثم وقبح.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فقد مدح الله نبيه محمد واصفاً إياه بتمتعه بالخُلق العظيم والذوق الرفيع، فقال تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(سورة القلم، آية ٤، وكذلك مدح النبي أصحاب الخلق العظيم في قوله: "إنّ أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله قد عرفنا الثرثارين والمتشدّقين، فمن المتفيهقون؟ قال: "المتكبّرون" رواه الترمذي (٢٠١٨) وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

فالرسول بسيرته العطرة وأحاديثه الشريفة تحمل في ثناياها العديد من المعايير والصفات السلوكية التي تخدم الذوق الرفيع، فمكارم الأخلاق هي الغاية التي من أجلها بعث النبي.

فلم يقتصر الإسلام على القيام بالشعائر الدينية من صلاة وصيام وذكر وتسبيح، فيضاف إلى هذه العبادات الذوق السليم، وهو جزء مهم وأساسي للمسلم، فيتعامل مع الناس بأسلوب جميل وذوق رفيع.

ومن هنا يتضح لنا أنّ الذوق في الإسلام هو أدبيات التعامل وجماله مع الناس بأشكاله المتعددة، من حسن تصرف، وحسن العشرة، والكلمة الجميلة.

فديننا الحنيف يجمع بين القيم والمثل الإنسانية الرائعة التي تجسّد الصورة المثلى للأخلاق الفاضلة، حيث كانت الغاية من بعثة الرسول إتمام مكارم الأخلاق، فمن ينظر في كتاب الله تعالى وفي سيرة النبي الكريم يجد أنّ الأدب والذوق الرفيع من خصائص هذا الدين.

المبحث الثاني

الذوق الرفيع في الشعر

إنّ تراثنا العربي الخالد يمثل تواصلاً فكرياً ومعرفياً بين أجيال أمتنا السابقة والحاضرة، فالكرم قيمة أخلاقية سامية مجدها الجاهلي إلى حد المبالغة، وراحت القبائل العربية على ألسنة شعرائها تتباهى في إظهاره، ممثلاً بالذوق الرفيع المتأصل فيه، فقد "مجّد العربي هذا الخلق تمجيداً يفوق كل شيء، وكان واقع حياة العرب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الاجتماعية، لذلك كان أول ما يذكر من الفضائل في باب المديح أو باب الفخر، وكان أوّل ما يسلب من الفرد أو القوم في باب الهجاء" (منصور، ١٩٧٩، ص ٣٩).

وقد تميز العربي بكرمه عند حضور الضيف ويرحب به دون الاستفسار عن حاجته أو غرض زيارته، وحتى اسمه ومن أي القبائل أتى، إلا بعد ثلاثة أيام، حتى يرتاح فيها من عناء السفر وهذا الذوق الرفيع يمثل قيمة إنسانية سامية، فهو صاحب إحساس مرهف وذوق رفيع جعله يمنح غيره أعزّ ما يملك دون منة أو تردد، فالكرم الذي تغنّى به يختلف من حيث الدرجة، فأن يعطي الإنسان شيئاً ما وهو ميسور الحال، ليس بنفس درجة العطاء حين يكون ذلك الإنسان أولى بهذا العطاء، وفي هذا المعنى يقول الشاعر عامر بن الطفيل (ابن الطفيل، ص ١٦):

إذا سَنَةٌ عَزَّت وَطالَ طِوالُها ... وَأَقحَطَ عَنها القَطرُ وَاِصفَرَّ عودُها

وُجِدنا كِراماً لا يُحَوَّلُ ضَيفُنا ... إذا جَفَّ فَوقَ المَنزِلاتِ جَليدُها

يصور الشاعر كرمه وكرم قومه تصويراً ينم عما يتميز به هو وقومه من سخاء مطلق، فهم أسخياء حتى في أحرج الأوقات حين ينقطع المطر وتجدب الأرض بعد طول انتظار، دلالة على أن الكرم شيء متأصل في نفوسهم، إذ هو من الخصال التي تلازمهم في السراء والضراء.

كما نظر بعض الشعراء إلى أن الكرم سجية متأصلة تورث من الآباء إلى الأبناء، بحيث أصبحت هذه السجية من تقاليد العائلة النبيلة، فزهير بن أبي سلمى يتحدث عن هرم بن سنان الذي ورث الجود عن أبيه فيقول (ابن أبي سلمى، ١٩٦٠، ص ٢١٠ – ٢١٣):

لَهُ في الذاهِبينَ أُرومُ صِدقٍ ... وَكانَ لِكُلِّ ذي حَسَبٍ أُرومُ

ووعودَ قومه هرمٌ عليه ... ومنْ عاداتهِ الخلقُ الكريمُ

كما قدْ كان عودَهُم أبوهُ ... إذا أزمتْ بهم سنةٌ أزومُ

فالخلق الكريم والجود تورث من الأجداد إلى الآباء والأبناء والحفدة، نجدها متجذرة عند يزيد بن خذاق العبدي، فيقول (القالي، ١٩٨٧، ج ٢، ٢٠٣):

وجدتُ أبي قد أورثه أبوهُ ... خلالاً قد تعدُّ من المعالي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فأكرمُ ما تكون عليَّ نفسي إذا ما قل في الأزمات مالي
فتحسن سيرتي، وأصون عِرْضي ويجمُلُ عند أهل الرأي حالي
فإن نلت الغنى لم أغلُ فيه ولم أخصُصْ بجفوتي الموالي

كما أنّ بعض الأجواد في العصر الجاهلي قد بلغ بهم الذوق الرفيع أن يطيّبوا نيرانهم التي تجلب لهم الأضياف، فإذا انبعثت الرائحة الزكية في الجو حضر الأضياف، فهذا عدي بن زيد العبادي يفتخر بناره التي أوقدها من النار فيقول (العبادي، ١٩٦٥، ص ٥١):

قد اصطلى ناره حيناً ويضرمها إذا خبا ضوؤها الهندي والغارا

ويقول أيضاً (المصدر نفسه، ص ٩٣):

أبصرت عيني عشاءً ضوء نار من سناها عرف هندي وغار
أدنت في عرف موقدها فأضاءت لمع كف بسوار

يروي الألوسي أنهم يوقدون النار بالنبات الطيب ليهتدي إليهم العميان (الألوسي، ١٣٤٢ ه، ج ٢، ص ١٦١)، وهذه دلالة ذوقهم الرفيع في استقبال الضيوف.

نرى أنّ العربي في ذلك العصر قد سما به الذوق الرفيع إلى حد أنه كان يستمتع حين يكرم ضيفه، فأضاء ناره من أجل الضيفان، وعطرها بالطيب وبهرها بالمطيبات ترحيباً بالضيوف.

وهذا حاتم الطائي يطلب من غلامه أن يوقد النار في ليل الريح العاتية والبرد الشديد، ويعده إن حلّ بسبب هذه النار ضيف أن يعتقه، فيقول (الطائي، ١٩٥٣، ص ٢٧١):

أَوقِد فَإِنَّ اللَيلَ لَيلٌ قَرٌّ وَالريحَ يا موقِدُ ريحٌ صِرٌّ
عَسى يَرى نارَكَ مَن يَمُرُّ إِن جَلَبَت ضَيفاً فَأَنتَ حُرٌّ

ومن الإشارة الدالة على الذوق الرفيع الذي بلغه هذا الإنسان مع ضيفه أن يتفقد دابة ضيفه ويكرمها قبل إكرام الضيف يقول الشاعر (الأبشيهي، ٢٠٠٧، ص ٢٤٩):

مطيّة الضّيف عندي تلو صاحبها لن يأمن الضّيف حتى تكرم الفرسا

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فهذا التصرف مدعاة إلى ارتياح الضيف إلى أقصى درجات الراحة.

ومن آداب الذوق الرفيع اهتمام العربي بالابتسامة وانطلاق الوجه بالبشر والتهليل وهو يقدم العطاء للمحتاج؛ حتى لكأنه - وهو يعطي - يكون الآخذ والحاصل على المعروف، يقول زهير ابن أبي سلمى في مدح حصن بن حذيفة الفزاري (ابن أبي سلمى، ١٩٥٠، ص ٦٨):

تَـراهُ إِذا مـا جِـئـتَـهُ مُـتَـهَـلِّـلاً كَـأَنَّـكَ تُعطيـهِ الَّـذي أَنـتَ سـائِـلُ

فَلَو لَم يَكُن في كَفِّـهِ غَيرُ نَفسِـهِ لَجـادَ بِهـا فَلَيَتَّقِ اللَـهَ سـائِلُـه

فقد اهتم العربي ببشاشة الوجه وهذه سجية من أرقى درجات الذوق الرفيع وخاصة إذا كانت في أثناء تقديم المعروف، فهذا أمية بن أبي الصلت يذكر ممدوحه ببشاشة الوجه، فيقول (ابن أبي الصلت، ١٩٧٧، ص ٤٢٦):

إلى مَـلِـكٍ أدرَّ لـنـا الـعـطـايـا بُحسـن بشـاشـة الوجه الطليق

وكما نعلم أنّ الناس تحب ليّن الجانب، باسط الوجه، والقلوب تقبل على من تواضع لها، وهذه السجايا من علامات الذوق الرفيع.

فالكرم من القيم الأخلاقية التي لها وقعها الكبير في النفوس وهو من الأخلاق العريقة التي عرفت منذ الأزل، وهو في مقدمة الفضائل التي يحب العربي أن يتحلى بها، فما ساد أحد في الجاهلية ولا في الإسلام إلا كان من كمال سؤدده إطعام الطعام، وإكرام الضيف في طلاقه الوجه، وطيب الكلام.

ومن الذوق الرفيع أن يبذل الغالي والنفيس في سد جوع عابر أو ضيف نازل، وإثاره على نفسه في أحيان كثيرة يقول حاتم الطائي (الطائي، ١٩٥٣، ص ٩):

وَإِنّي لَعَبدُ الضَـيفِ مـا دامَ ثـاوِيـاً وَ ما فيَّ إِلّا تِلكَ مِن شـيـمَةِ العَبدِ

وهذا عروة بن الورد يتغنى بذوقه الرفيع وهو يقول في شعر له، إن فراشه فراش الضيف، وأن بيته بيت للضيوف، يجالس الضيف ويحادثه، فالحديث جزء من القرى (ابن الورد، ص ٢٢):

فِراشي فِراشُ الضَـيفِ وَالبَيـتُ بَيتُـهُ وَلَـم يُـلـهِـنـي عَـنـهُ غَـزالٌ مُـقَـنَّـعُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أُحَدِّثُهُ إِنَّ الحَديثَ مِنَ القِرى وَتَعلَمُ نَفسي أَنَّهُ سَوفَ يَهجَعُ

أما طرفة بن العبد فيشيد بفضائل قبيلته وقد خلع على قومه صورة مثالية للذوق الرفيع وللكرم والنجدة فيقول (ابن العبد، ١٩٦١، ص ١٢٨ – ١٢٩):

إنّي مِنَ القَومِ الَّذينَ إذا أَزِمَ الشِتاءُ وَدوخِلَت حُجَرُه
يَوماً وَدونِيَتِ البُيوتُ لَهُ فَثَنى قُبَيلَ رَبيعِهِم قِرَرُه
رَفَعوا المَنيحَ وكانَ رِزقَهُمُ في المُنقِياتِ يُقيمُهُ يَسَرُه
تَلقى الجِفانَ بِكُلِّ صادِقَةٍ ثُمَّت تُرَدَّدُ بَينَهُم حِيَرُه

كما أدرك الشاعر أهمية الذوق الرفيع وعرف قيمته وحاجة السادة إلى إذاعة محامدهم ونشر فضائلهم بأشعار تجعلهم يهتزون تيهاً وطرباً، فتحملهم على العطاء والبذل، فهذا طرفة بن العبد يرسم صورة إنسانية من ذوقهم الرفيع يمدح فيها قتادة بن مسلمة الحنفي مؤكداً ذوقه الرفيع قائلاً (المصدر نفسه، ص ١٤٥-١٤٦):

أَبلِغ قَتادَةَ غَيرَ سائِلِهِ مِنهُ الثَوابَ وَعاجِلَ الشَكِمِ
أَنّي حَمِدتُكَ لِلعَشيرَةِ إذ جاءَت إِلَيكَ مُرِقَّةَ العَظمِ
أَلقَوا إِلَيكَ بِكُلِّ أَرمَلَةٍ شَعثاءَ تَحمِلُ مَنقَعَ البُرُمِ
فَفَتَحتَ بابَكَ لِلمَكارِمِ حي نَ تَواصَتِ الأَبوابُ بِالأَزَمِ
وَأَهَنتَ إِذ قَدِموا التِلادَ لَهُم وَكَذاكَ يَفعَلُ مُبتَني النِعَمِ
فَسَقى بِلادَكَ غَيرَ مُفسِدِها صَوبُ الغَمامِ وَديمَةٌ تَهمي

يقدم الشاعر الشكر إلى صاحب الذوق الرفيع والفضل الذي تفضل على عشيرته حين أصابتها سنة مجدبة، ففتح لهم قتادة أبوابه، وأغدق عليهم العطاء في هذا الوقت الشديد على الناس، ودعا الشاعر أن تظل دياره عامرة خصبة كثيرة الخير ليقصدها كل محتاج، نلمس من خلال هذه الصورة الرائعة أن مديح طرفة نابع من قلب صادق، تشيع فيه أنداء المودة، ويفوح منه عبير الوفاء والعرفان لقتادة الذي يعد من أجواد العرب.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهذا زهير بن أبي سلمى يقول في مدحه لصاحب الذوق الرفيع هرم بن سنان الذي لا يسد أبوابه بوجه سائل أو محتاج، ولذلك وجد الطالبون إلى أبوابه طرقهم حيث يقول (ابن أبي سلمى، ١٩٦٠، ص ٤٦ – ٤٩):

قَد جَعَلَ المُبتَغونَ الخَيرَ في هَرِمٍ ... وَالسائِلونَ إِلى أَبوابِهِ طُرُقا

هُوَ الجَوادُ فَإِن يَلحَق بِشَأوِهِما ... عَلى تَكالـيفِهِ فَمِثلُهُ لَحِقا

ويمدح أيضاً حصن بن حذيفة، لأنّ فواضله وعطاياه لا تنقطع عمن يطلبون من عنده، وهو لا تتلف الخمر ماله بل عطاؤه، وهو يستبشر بمن يطلب منه، فكأنه يعطيه ما يطلب منه، فيقول (المصدر نفسه، ص ١١١):

وَأَبيَضَ فَيّاضٍ يَداهُ غَمامَةٌ ... عَلى مُعتَفيهِ ما تُغِبُّ فَواضِلُه

أَخي ثِقَةٍ لا تُتلِفُ الخَمرُ مالَهُ ... وَلَكِنَّهُ قَد يُهلِكُ المالَ نائِلُه

تَراهُ إِذا ما جِئتَهُ مُتَهَلِّلاً ... كَأَنَّكَ تُعطيهِ الَّذي أَنتَ سائِلُه

يمدح زهير صاحب الذوق الرفيع والخلق الكريم، وصفات الخير التي يحملها، يقول طه حسين الذي أسرف في تبيان إعجابه بمدح زهير بن أبي سلمى: "كان مدحه خليقاً أن يبقى وأن يحفظه الناس؛ لصدقه وارتفاعه عن السخف وبعده عن الإحالة وتوخيه هذه الخصال التي يحبها الناس، ويحبها العرب خاصة" (حسين، ١٩٨٢، ص ١١٤).

كما وصف زهير حصن بن حذيفة الفزاري في هذه الأبيات بالعفة؛ لقلة إمعانه في اللذات ولذوقه الرفيع حيث لا ينفد ماله فيها، وبالسخاء لإهلاكه ماله في النوال وانحرافه إلى ذلك عن اللذات، وعده من رجال الخير والإصلاح.

المبحث الثالث

نماذج من صفات الخير التي يحملها ذو الذوق الرفيع

الذوق الرفيع من صفات الخير التي يحملها هرم بن سنان حيث جعل بيته أوسط البيوت يقول زهير (ابن أبي سلمى، ١٩٦٠، ص ١٩٨) :

يَسِطُ البُيوتَ لِكَي يَكونَ مَظِنَّةً ... مِن حَيثُ توضَعُ جَفنَةُ المُستَرفِدِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

حَـزمـاً وَبِـرّاً لِـلإِلَـهِ وَشَـيـمَـةً تَعفو عَلى خُلُقِ المُسيءِ المُفسِدِ

ويبدو أنّ زهير بن أبي سلمى رأى في صفات هرم بن سنان والحارث بن عوف أكمل صورة للسيد البدوي، فزهير ذو ذوق بدوي رفيع، يمدح وفق ما تمليه عليه صفات الممدوح إذ يقول: "إن بيته يتوسط البيوت ليكون معلماً لضيفانه طالب الرفد وهذه من صفات الكرم وكثرة الضيافة والاستعداد للضيفان والمبالغة في برّهم وإكرامهم.

من هنا يتضح لنا أنّ العربي في العصر الجاهلي قد سما به الذوق الرفيع إلى حد أنه كان يستمتع حين يكرم ضيفه، وهذا دليل نشوته في هذا الصنيع المتقدم في السلوك القويم والذوق الرفيع.

ومن ذوقهم الرفيع ومكارم أخلاقهم حفظ غيبة الجار في زوجه، وفي ذلك يقول حاتم الطائي (الطائي، ١٩٥٣، ص ٢٤٧) :

فَلا وَأَبيكَ ما يَظَلُّ اِبنُ جارَتي يَطوفُ حَوالَيَ قِدرِنا ما يَطورُها

وَما تَشتَكيني جارَتي غَيرَ أَنَّها إِذا غابَ عَنها بَعلُها لا أَزورُها

إنّ مكارم الأخلاق نتاج أجيال وأجيال، وخلاصة تاريخ أمة صاغها الشعراء في شعرهم قصائد حية نابضة تعبّر عن موروثهم الإنساني في ذلك العصر، باعتبار أن الشعر يرسم صورة للواقع ومرآة تعكس لنا الحال آنذاك.

كما بلغ الذوق الرفيع عندهم أنهم لا يفرقون بين الغني والفقير وبلغ تواضعهم أنهن يخالطون الفقير المعدم، وأخلاقهم حميدة، يقول حسان بن ثابت مادحاً ملوك الغساسنة (ابن ثابت، ١٩٨٣، ص ٢٤٧):

لِلَّهِ دَرُّ عِصابَةٍ نادَمتُهُم يَوماً بِجِلَّقَ في الزَمانِ الأَوَّلِ

الضارِبونَ الكَبشَ يَبرُقُ بَيضُهُ ضَرباً يَطيحُ لَهُ بَنانُ المَفصِلِ

وَالخالِطونَ فَقيرَهُم بِغَنِيِّهِم وَالمُنعِمونَ عَلى الضَعيفِ المُرمِلِ

ولعل من أبرز مكارم الأخلاق والذوق الرفيع في ذلك العصر خلق العفة، والذي يعد ثمرة حقيقية لما أدركه الجاهليون، ومن أبرز ما يشير إلى احتفائهم بخلق العفة قول عنترة (ابن شداد، ١٩٨٣، ص ٣٠٨):

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أَغشى فَتاةَ الحَيِّ عِندَ حَليلِها ... وَإِذا غَزا في الجَيشِ لا أَغشاها
وَأَغُضُّ طَرفي ما بَدَت لي جارَتي ... حَتّى يُواري جارَتي مَأواها
إِنّي اِمرُؤٌ سَمحُ الخَليقَةِ ماجِدٌ ... لا أُتبِعُ النَفسَ اللَجوجَ هَواها

وفي ذلك دلالة على أنّ الذوق الرفيع يرتقي لأسمى درجات العفة من حيث البعد عن الشبهات وغض البصر، وكف النفس عن الانقياد لوسواس الشهوة، وقد طرح عنترة قبيل هذه الأبيات مظهراً من الذوق الرفيع وهو عدم مراودته لأي امرأة في الحرام حتى يوفي وليها مهرها في الحل، ذلك قوله (المصدر نفسه ص ٣٠٧):

ما اِستَمتُ أُنثى نَفسَها في مَوطِنٍ ... حَتّى أُوَفّيَ مَهرَها مَولاها

بل يرى زهير أنّ من الذوق الرفيع الحفاظ على العرض ويثبت لها الأسبقية والأفضلية عن كل القيم يقول (ابن أبي سلمى، ١٩٦٠، ص ٣٠):

وَمَن يَجعَلِ المَعروفَ مِن دونِ عِرضِهِ ... يَفِرهُ وَمَن لا يَتَّقِ الشَتمَ يُشتَمِ

وتبعاً لذلك المعنى يقرر زهير أن المتهاون في صيانة عرضه يعيش أبد الدهر محتقراً مرذولاً بين الناس ذلك في قوله (المصدر نفسه، ص ٢٥٢):

وَمَن لا يَصُن قَبلَ النَواف ....
وَقِرافُ مَن لا يَستَفيقُ دَعارَةً ... يُعدي كَما يُعدي الصَحيحَ الأَجرَبُ

ولم يغب عن النظر الجاهلي كون العفة من علامات تدين أهل الأديان السماوية، الأمر الذي ظهر في مدح النابغة للغساسنة - وهم نصارى - بالتعفف بطريقة غير مباشرة، يقول (الذبياني، ١٩٩٦، ص ٥٨):

رِقاقُ النِعالِ طَيِّبٌ حُجُزاتُهُم ... يُحَيّونَ بِالريحانِ يَومَ السَباسِبِ

ومن الذوق الرفيع الذي عرفه الجاهلي ذِ عِرضَهُ فَيُحرِزُهُ يُعرَر بِهِ وَيُخَرَّقِ

ومن الذوق الرفيع عندهم أن تكون العفة وما يتعلق بها من صيانة العرض من القيم المطلقة، وليست مجرد خلق يمتدح به، ومن هذا المنطلق كانت كراهتهم للدعارة وما يتصل بها، يشير إلى ذلك طرفة بن العبد في نهيه عن مصاحبة البعيد عن العفة الممارس للدعارة حيث يقول (ابن العبد، ١٩٦١، ص ١١٢):

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أيضاً الأمانة وقد شاع في شعرهم الندب على الحفاظ عليها والوفاء بها، ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى مفتخراً بحفظه للأمانة (ابن أبي سلمى، ١٩٦٠، ص ٣٤٨):

وَحِفظي لِلأَمانَةِ وَاِصطِباري ... عَلى ما كانَ مِن رَيبِ الزَمانِ

ولا غرو أن خلق الأمانة كان ثمرة للذوق الرفيع، ويفتخر لبيد بن ربيعة بحفظ قومه للأمانة ووفائهم بها، يقول (ابن ربيعة، ١٩٧٠، ص ١٨٠):

وَإِذا الأَمانَةُ قُسِّمَت في مَعشَرٍ ... أَوفى بِأَوفَرِ حَظِّنا قَسّامُها

وقد عرف الجاهليون طرفاً من الذوق الرفيع المتمثل في صلة الرحم كخلق دال على التراحم بينهم، إذ إنّ العصبية القبلية كانت هي الجذر الأساس لذلك الخلق، ومن المواضع المشيرة إلى هذا الخلق قول زهير بن أبي سلمى مادحاً حصن بن حذيفة الفزاري الذي يصل ذوي النسب البعيد بكثرة معروفه حتى يغنيهم فيتفضلون به على غيرهم لغناهم منه (ابن أبي سلمى، ١٩٦٠، ص ١٤٣):

وَذي نَسَبٍ ناءٍ بَعيدٍ وَصَلتَهُ ... بِمالٍ وَما يَدري بِأَنَّكَ واصِلُه

ويثبت زهير ذوقه الرفيع في موضع آخر بحسن صنيعه مع رحمه، برغم عدم معاملة هذا الرحم له بالمكافأة بالمثل، فيقول (المصدر نفسه، ص ٣٤٩):

وَمَولىً قَد رَعَيتُ الغَيبَ مِنهُ ... وَلَو كُنتُ المُغَيَّبَ ما قَلاني

ومن ذوقهم الرفيع الذي عرفوه الحلم والصدق واللذان يعدان ثمرة لهذا الذوق الذي يغلب العقل والأناة على السلوك، ومن المواضع التي جمعت بين الحلم والصدق قول زهير بن أبي سلمى (المصدر نفسه، ص ٢٥٢):

وَفي الحِلمِ إِدهانٌ وَفي العَفوِ دُربَةٌ ... وَفي الصِدقِ مَنجاةٌ مِنَ الشَرِّ فَاِصدُقِ

وهذا طرفة بن العبد يبرز ذوقه الرفيع ويمتدح خلق الصدق ويستقبح الكذب في قوله (ابن العبد، ١٩٦١، ص ١١٣):

وَالصِدقُ يَألَفُهُ الكَريمُ المُرتَجى ... وَالكِذبُ يَألَفُهُ الدَنيءُ الأَخيَبُ

وقد أشار الجاهليون إلى ذوقهم الرفيع وبراعتهم في صياغته، ومدحهم خلق (الوفاء للصديق) وندبوا عليه، ومن ذلك قول النابغة (الذبياني، ١٩٩٦، ص ٦٧):

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَاِســتَبقِ وِدَّكَ لِلصَــديقِ وَلا تَكُن قَـتَـبـاً يَـعَـضُّ بِـغـارِبٍ مِـلـحـاحـا

وكذا قول زهير بن أبي سلمى (ابن أبي سلمى، ١٩٦٠، ص ٢٥٠):

أَبيـتُ فَلا أَهجو الصَـــديقَ وَمَن يَبِع بِعِرضِ أَبيـهِ في المَعـاشِرِ يُنفِقِ

وأيضاً في قوله (المصدر نفسه، الصفحة نفسها):

أَكُفُّ لِســـاني عَن صَـــديقي وَإِن أَجَـأ إِلَيـهِ فَـإِنّي عـارِقٌ كُـلَّ مَعرَقِ

وقد أشار امرؤ القيس إلى ذوقه الرفيع في حفظ اللسان في قوله (امرؤ القيس، ١٩٨٤، ص ٩٠):

إِذا المَرءُ لَم يَخزُن عَلَيـهِ لِســـانَـهُ فَلَيسَ عَلى شَيءٍ سِـــواهُ بِخَزّانِ

أما النابغة فقد دل على الذوق الرفيع في امتداحه خلق الرفق في قوله (الذبياني، ١٩٩٦، ص ٦٧):

فَـالـرِفـقُ يُمـنٌ وَالأَنـاةُ سَـــعـادَةٌ فَـتَـأَنَّ في رِفـقٍ تَـنـالُ نَـجـاحـا

كما كان من ذوقهم الرفيع استهجانهم لبعض السلوكيات والأخلاق لتعارضها مع ما قر في أذهانهم من مكارم الأخلاق، ومن ذلك استقباحهم للظلم الأمر الذي قصده زهير بن أبي سلمى على حبّه للسلام بقوله (ابن أبي سلمى، ١٩٦٠، ص ٣٠):

وَمَن لا يَذُد عَن حَوضِـــهِ بِسِـــلاحِهِ يُهَـدَّم وَمَن لا يَظلِم النـاسَ يُظلَمِ

إلا أنّ طرفة بن العبد يشنع ذلك السلوك بذوقه الرفيع موضحاً مغبته مستشهداً بما حدث بين بكر وتغلب من حروب بسبب الظلم، يقول (ابن العبد، ١٩٦١، ص ١١٢):

وَالـظُـلـمُ فَـرَّقَ بَـينَ حَـيَّـي وائِـلٍ بَـكـرٌ تُســاقـيـهـا المَـنـايـا تَـغـلِـبُ

قَـد يـورِدُ الـظُـلـمُ المُـبَـيَّنُ آجِـنـاً مِلحـاً يُخـالَطُ بِـالـذُعـافِ وَيُقشَـــبُ

وهذا زهير بن أبي سلمى يرسم ملامح شخصيته التي هي أصل كل إنسان أبي كريم من خلال ذوقه الرفيع، فيقول (ابن أبي سلمى، ١٩٦٠، ص ٦٧):

أَبـيـتُ فَـلا أَهـجـو الصَـــديـقَ وَمَـن يَبِع بِعِرضِ أَبيـهِ في المَعـاشِرِ يُنفِقِ

أَكُـفُّ لِســـاني عَـن صَـــديـقـي وَإِن أَجَـأ إِلَـيـهِ فَـإِنّي عـارِقٌ كُـلَّ مَـعـرَقِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وَفي الحِلمِ إِدهـانٌ وَفي العَفوِ دُربَـةٌ وَفي الصِـدقِ مَنجاةٌ مِنَ الشَرِّـ فَاِصـدُقِ
وَمَن يَلتَمِس حُســـنَ الثَناءِ بِمـالِـهِ يَصُـــن عِرضَـــهُ مِن كُلِّ شَـــنعاءَ موبِقِ

وبعد هذا العرض والشواهد الغنية ألا يأخذنا الأعجاب ويشدنا للتوقف عند هذا الشعر العظيم بمعانيه والقوي بأساليبه.

فقد نبت هذا الشعر في تربة خصبة وأعطى ثمرة ناضجة من الذوق الرفيع لحياتنا وقيمنا، وهل هناك أسمى من هذه القيم التي تهذب النفس وتصقلها؟ ألم يحث ديننا الإسلامي الحنيف عليها؟

لقد صور الشعراء لنا مواقف إنسانية راقية نابعة من جوهر التعاليم الإسلامية السمحة، على الرغم من عدم إدراكهم الإسلام وفي ذلك دلالة على ما لهؤلاء الشعراء من أخلاق حميدة ونفوس كبيرة استمدوها من فطرتهم السليمة وذوقهم الرفيع.

الخاتمة

نستطيع أن نتبين بوضوح مدى ما وصل إليه بحثنا من نتائج مبهرة، وبخاصة أن العرب كانوا أصحاب ذوق رفيع وحس مرهف، ولذلك صبغوا أشعارهم بصبغة أدبية فخرجت في أجمل صورة، مما غرس في نفوسنا الميل الشديد إلى حب كل تصرف حميد يحمل معاني إنسانية راقية وذوقاً رفيعاً وإحساساً فنياً صادقاً.

- اتضح لنا أنّ العربي القديم كان أكثر ذوقاً وتأدباً في معاملة الآخرين، وهذا ما أكده شعرنا القديم.

- أنّ الذوق الرفيع يمثل قيمة إنسانية سامية، فالعربي صاحب إحساس مرهف وذوق رفيع جعله يمنح غيره أعز ما يملك دون منة أو تردد، كما بلغ بهم الذوق أن يطيبوا نيرانهم التي تجلب لهم الأضياف.

- ومن آداب الذوق الرفيع اهتمام العربي بالابتسامة وانطلاق الوجه بالبشر والتهلل وهو يقدّم العطاء للمحتاج.

- اتضح أنّ العربي كان أكثر ذوقاً وتأدباً في تعامله مع الآخرين، وهذا ما أكده شعرنا القديم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- في آيات القرآن الكريم ما يتجلى فيها مظاهر الذوق الرفيع والأدب وفن التعامل مع الآخرين في أسمى صوره ومعانيه، فديننا الحنيف يجمع بين القيم والمثل الإنسانية التي تجسد الصورة المثلى للأخلاق الحميدة والذوق الرفيع.

- ومن الذوق الرفيع عندهم أنّ العفة وما يتعلق بها من صيانة العرض من القيم المطلقة، وليست مجرد خلق يمتدح به.

- ثبت ذوقهم الرفيع في عدة نواح منها الأمانة والوفاء والحلم والصدق وصلة الرحم، وكلها ثمرة لهذا الذوق ودلالة على ما لهؤلاء الشعراء من أخلاق حميدة ونفوس كبيرة، استمدوها من فطرتهم السليمة وذوقهم الرفيع.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١- الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت ٨٥٠)، المستظرف في كل مستظرف، تحقيق مصطفى محمد حسين الذهبي ١٢٢٤ه – ٢٠٠٧م، دار الحديث، القاهرة.

٢- الألوسي، محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق محمد بهجة الأثري، مطابع دار الكتاب العربي، مصر، ط٣، ١٣٤٢ه.

٣- ابن أبي الصلت، أمية، الديوان، جمع وتحقيق ودراسة صنعة عبد الحفيظ السطلي، ١٩٧٧م، ط٢.

٤- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ه)، لسان العرب، طبعة مصورة من طبعة بولاق، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة (د. ت).

٥- ابن أبي سلمى، زهير (ت ٦٠٩ه)، شرح الديوان، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٧٩ه، ١٩٦٠م.

٦- إبراهيم أنيس، ود. عبد الحليم منتصر، وعطية الصوالحي، ومحمد خلف الله أحمد، المعجم الوسيط أشرف على الطبع حسن علي عطية، محمد شرف أمين، مطبعة دار الأمواج، بيروت، لبنان ١٤٠٧ه، ١٩٨٧م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٧- القالي، أبو علي، الأمالي، دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، ط٢، بيروت، لبان ١٤٠٧ه، ١٩٨٧م.

٨- ابن الورد، عروة، الديوان، شرح ابن السكيت، يعقوب بن اسحق (ت ٢٤٤ه)، حققه وأشرف على طبعه، ووضع فهارسه عبد المعين الملوحي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق (د. ت).

٩- ابن طفيل، عامر، الديوان.

١٠- الطائي، حاتم، الديوان، تحقيق وشرح كرم البستاني، مكتبة دار صادر، بيروت، ١٩٥٣م.

١١- ابن العبد، طرفة (ت ٥٦٤ه) الديوان، دار صادر دار بيروت، ١٣٨٠ه، ١٩٦١م.

١٢- امرؤ القيس، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٤، القاهرة ١٩٨٤م.

١٣- العبادي، عدي بن زيد، الديوان، حققه د. جمعة محمد جبار المعيد، ١٩٦٥، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد.

١٤- ابن ثابت، حسان، شرح ديوان حسان بن ثابت، عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، ط٣، بيروت ١٩٨٣م.

١٥- ابن شداد، عنترة، الديوان، تحقيق ودراسة د. محمد سيد مولوي المكتب الإسلامي، بيروت ط٢، ١٩٨٣م.

١٦- ابن ربيعة، لبيد بن ربيعة العامري، د. يحيى الجبوري، الناشر مكتبة الأندلس، بغداد، مطابع التعاونية اللبنانية، بيروت ط١، ١٩٧٠م.

١٧- الذبياني، النابغة، الديوان تقديم وشرح وتعليق د. محمد حمود، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

١٨- سعيد حسين منصور: القيم الخلقية في الخطابة العربية الهيأة العامة للكتاب ١٩٧٩م.

١٩- عيد سعيد يونس: التصوير الجمالي في القرآن الكريم، عالم الكتب، ط ٢٠٠٦م.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٢٠- فتحي عامر، المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط١، ١٩٧٦م.

٢١- طه حسين، المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين، الشركة العالمية للكتاب، ط١، ١٩٨٢م.

٢٢- الألباني، صحيح سنن الترمذي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف ١٤١٩ه، ١٩٩٨م، ط١.

❊ ❊ ❊ ❊

شبكة الألوكة - قسم الكتب

هذا الكتاب منشور في